(٥)

الثأر.. فوضى العقل وعقل الفوضى

سألتُ صديقي: ما هو أجمل شيء في مصر حاليًا؟

تطلع إليّ بعينين غارقتين في أسى مخيف وسكتْ.

وعدتُ أفكر ما الذي حدث خلال النصف قرن الماضي ليجعل الحياة في مصر بكل هذه الفوضى؟ لقد وصلنا بالفوضى إلى حدود التطرف، أقصى حدود التطرف، انظر إلى الشارع، ستجد كرنفالاً من الثياب، المتبرجات والمحجبات والمنقبات، أصحاب السراويل الضيقة المستفزة وأصحاب اللحى، الجلابيب القصيرة والقمصان الملونة، العمارات الشاهقة والبيوت القصيرة السوداء اللون،الجراجات المغلقة والسيارات التي تقف صفوفًا طويلة، جنود المرور – الذين يصعبوا على الكافر – بملابسهم المتربة ولحاهم، الميكروباصات ذات الألوان، الدخان الأسود الذي يخرج منها ومن أتوبيسات النقل العام، الباعة المتجولون، الشحاذين، عربات حكومية يطل منها رؤوس كلاب ورؤوس أطفال عائدين من نزهة مسائية أو صباحية، طابور مدرسة

صباحي تحول إلى مأتم للوطن، أولاد يتسكعون يشربون السجائر والمخدرات، زحام هنا وهناك، أرصفة مكسرة، مطبات لا قانون يحكمها، مياه آسنة متجمعة في الأركان، سحابات سوداء تغطي رؤوس الجميع، زعيق هنا وهناك، عرقٍ وسخام ووجوه صفراء مريضة شاحبة... هل هذا هو الوطن؟!

أتطلع إلى صورة بالأبيض والأسود قديمة على الحائط لجدي وجدك، صحته تكاد تنطق في الصورة، شوارب عريضة، وابتسامة رائقة جدية... أين ذهب كل ذلك؟ ما الذي شوه الوجوه والشارع والحي والمدرسة والسيارة والمستشفى والمسجد والكنيسة؟ ما الذي شوه علاقات المسلمين بالأقباط؟ ما الذي قتل الأحزاب؟ ومن الذي أودعهم السجون؟ ما هو هدف أي منا حين يخرج في الصباح؟ العمل أم قتل وقت الفراغ؟ أو مسلسل الخناق اليومي مع الجار؟ حتى الرئيس في العمل الذي لا يعرف معنىً للعمل في مصلحة حكومية.

تراكمات من الفوضى، هل كان العقل المصري فوضويًا من قبل؟ وإذا لم يكن فمن أين أتت هذه الفوضى؟ هل ورثنا الفوضى؟ إذا كان ذلك فمن أين أتت هذه التماثيل الخلابة الجميلة والأهرامات التي يتحاكى بها العالم؟

احترتُ كثيرًا في من أتهم، أتهم النظام بأنه خلق اللا نظام؟ بأنه أعطى المسؤولية لمن لا يستحق؟ بأنّ الحكم والإدارة هبات يمنحها من لا يستحق لمن لا يستحق؟ ما معنى الاشتراكية التي ينص عليها الدستور في بلد لا يفهم معنى الاشتراكية ولم يستطع تنفيذها لا على الورق ولا في الواقع؟ ما معنى الإسلام والتكافل الاجتماعي إذا كنا لا نطبقه؟ ما معنى التسامح في المسيحية إذا كنا لا نعرفها؟ ما معنى المدرسة إذا كانت تخلق طفلاً فوضويًا؟ ما معنى المدرس إذا كان ينشل جيوب الآباء ويزرع في العقول صورة ذهنية لمعنى الجشع والأنانية وفقدان الأهلية؟ ما معنى المحامي إذا كان لصًا؟ ما معنى المهندس وهو يوافق على إغلاق الجراج ويبني الجسر الخطأ ويبني الأرصفة الخطأ، وهو يضع الإسفلت الخطأ، وهو يبني البيت الخطأ، وهو يستحل أن يأكل حرامًا؟ ما معنى الطبيب الذي يقتل مرضاه بعد أن يحصل على أمواله منهم؟ ما معنى الضابط إذا تاجر في المخدرات والميكروباصات وفي مساجين السجن والمعتقلين؟ ما معنى الكاتب والمفكر – وضع تحت المفكر ألف خط – إذا كان يهين ذكاءه وذكائنا ليدافع عن باطل؟ ما معنى رئيس الجريدة الذي يستحل دم صحفييه ويأكل من بطونهم؟ ما معنى النظام إذا كان التعيين هو القدر لكل صاحب مسؤولية؟ أليس هذا هو مجتمع الفوضى؟ فوضى العقل الذي كرس مفهوم عقل الفوضى في النهاية.

تتراكب وتتوالد الصور الذهنية المغلوطة لتشكل عقلاً لا يعرف معنى النظام، فيولد مجتمع اللا نظام، وهذا المجتمع بطبيعته سوف يقوم بتصفية نفسه مع الوقت، فمن سيبقى في النهاية سوى بعض الرموز التي ستحكم شعبًا ميتًا، هل يستحق هذا الشعب الذي عاش في الوادي عشرات الآلاف من السنين أن يحدث له ذلك؟ هل هُنَّا على أنفسنا لنقتل أنفسنا بأنفسنا ونحن نمارس الفوضى في كل لحظة، ولصالح من هذه الفوضى، وهذه العبثية المتطرفة والمفرطة؟

هل أعود لمحاكمة النظام، ولمحاكمة لحظة الحرية؟ هل نتجت الفوضى المفرطة عن حرية مفرطة؟ ولماذا لم يحدث ذلك في الغرب؟ لأن الغرب نال حرية حقيقية، أما نحن فقد نلنا حرية فرد واحد وشعب مسجون داخل أماني ووعود بتحقيق الأماني ذات يوم، هل نحن شعب فقدنا ذكاءنا لنصدق أي وعود كانت تقطع علينا منذ أكثر من خمسين عامًا، النكسة كانت حالة فوضى، وانهيار التعليم والمياه والصحة والثقافة والشارع والإنسان حالة فوضى.

سأطلب منك أن تدخل في عقل أي طفل مصري الآن، أو امرأة أو رجل، اكتشف بنفسك حالات الفوضى الفردية، عقول تنتهبها

الهواجس والوساوس والكآبة والأرق والحزن والمرض، عقول لا تستريح، تريد أن تضحك على أي شيء ولأي شيء، لأنها ماتت كمدًا لسنوات طويلة، اللسان مقيد والعقل مقيد والإرادة مقيدة والإحساس مقيد، فماذا تنتظر يا سيدي منهم؟

إن أول طريقة للتصحيح هي فتح الجروح ثم إلقاء الملح فيها، فهل سنتحمل ونحن نمارس الفوضى ليلا نهارًا، لا حسيب ولا رقيب ولا قانون ولا شيء جميل يستحق أن نقف أمامه، ولماذا نقف ونحن نسير بسرعة ونأكل بسرعة ونشرب بسرعة ونمارس الجنس بسرعة ونتعبد بسرعة، دون أن ننظر خلفنا أو حتى أمامنا، نحن نسير كالحصان، الحصان الأعمى، الذي يمكن أن يَقتل في لحظة، كما يمكن أن يُقتل في لحظة.

كم خرقنا من القوانين، الحكومة أول من يخرق كل قانون، الحكومة هي المثال والقدوة، الرئيس والوزير والمحافظ والمدير والضابط كلهم يخرقون القوانين، كلهم يعودون بنا إلى عصر اللا قانون، فلماذا نحتفظ نحن بقانون لحكومة تصرف خارج الميزانية أكثر من ثلثها، ميزانية دولة بأكملها تصرف الثلث على أشياء لم يرد ذكرها بالميزانية فكيف نأتمنها على أرواحنا؟ نحافظ على القطاع العام أو لا؟ نبيعه برخص

التراب، نبيع مياه النهر أم لا؟ أسئلة إستراتيجية لدولة لا تعلم ما هي إستراتيجيتها، فأصبح كل ما تفعله ردود أفعال أو أوامر من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي وعائلة الدولي كلها.

الإنسان يرتكب الفوضى لأنه فقد الأمن، يحتمي بالقبيلة أو بالمجموع أو بقربه من منفذ النظام، وحين تصبح المؤسسة التشريعية رقم اثنين أو ثلاثة والمؤسسة التنفيذية هي رقم واحد في الدولة فكيف نصنف هذه الدولة؟ نحن خرجنا من التصنيف، دولة لا يمكن تصنيفها الآن بسبب حالة الفوضى واللا نظام، فرغم كل ما نملكه، كنا نبني الكباري بأقل القليل، فأتت مشوهة لا تتحمل، وأردنا حل أزمة المواصلات فخلقنا ألف أزمة من ميكروباصات مشوهة بالكوم وتاكسيات مشوهة أيضًا، إن هناك من ألقى فوق وجهها هي الأخرى ماء النار، وشركات شرهة للحم الحي المصري أوسعت فيه قتلاً وتنكيلاً، كوارث يومية للعبارات والقطارات والأتوبيسات والجرارات والميكروباصات، قتلاها بالمئات والآلاف.

أردنا حل أزمة المستشفيات فأصبح لدينا آلاف المرضى الذين لا يجدون علاجًا، وأردنا إصلاح التعليم فشوهنا منظومة التعليم.

المشكلة أن إرادتنا لم تكن خالصة وكلية للحل، كنا نحل بشكل جزئي فزاد التشويه وزادت الفوضى.

وبعد كل ذلك يجب أن أسألك كيف تعيد هذا المجتمع إلى حالة النظام؟ هل علينا أن نعيد قراءة نصوص القانون الفرنسي وغيره؟ شوهنا القانون، وأصبح من يحكم أبو القانون وفوق القانون وأم القانون، فلماذا نتعب دماغنا ونوجعها بهذا الكلام الفارغ؟ أصل الداء معروف، لكن الدواء غير معروف، وأتحدى جهابذة صياغة القوانين في مصر أن يقوموا بتقديم حل شيطاني لهذه المسألة.

نحن أسوأ مليون مرة من العهد الملكي، وأسوأ مليون مرة من إسرائيل، وأسوأ مليون مرة من الشيطان نفسه، الشيطان نفسه لو أراد خلق هذه الفوضى العقلية لن يستطيع، لماذا؟ لأننا فقدنا الأمان في الآخر، فأصبحنا نواجه أنفسنا فقط، لقد خلقنا الأداة التي تقتلنا كل يوم، هذه الأداة تكبر كل يوم، وحش لم يعد من الممكن السيطرة عليه، لأن أذرعته أخطبوطية، ونحن ضعاف مشوشون فوضويون، وبعضنا لا يستحق مجرد الحياة.

أعود لهذا القاتل الاجتماعي التسلسلي الشره، إن ازدحام العقل بالفوضى جعلته يعمل بسهولة، أصبح العقل المصري هو عقل الفوضى، العقل الذي يقبل كل الأمور بسهولة فهي مشوهة وهو لا يدرك تشويهها أو يدركه ويقبل به أو يراها لا تختلف عما هو جميل، مما سهّل من مهمة القاتل الاجتماعي، الذي ألد أعداؤه العقل المنظم،

القاتل الاجتماعي لا بد له من خلق الفوضى التي تصبح مع الوقت هي المبدأ الأول والأخير لأي عقل، تم توريث عقل الفوضى للإنسان المصري خلال عدة سنوات من الحروب والتنكيل السياسي والكذب السياسي والعهر السياسي ومتلازمة الفقر ومتلازمة السلطة، بدأنا حركة جماعية من الفوضى، من بحث عن الحلول الفردية للهروب من الأزمات الخانقة سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، ومع الوقت استمرأ العقل الحلول الفردية بسبب الضغوط القاتلة المتوالية من كل الاتجاهات، وهنا ترسخ عقل الفوضى، وأصبحت مهمة القاتل الاجتماعي سهلة ويسيرة، أصبحت البيئة التي يعمل فيها هذا القاتل المجنون زاهرة، يعمل دون أن ينتقده أحد، لأن ما يفعله يتفق مع كل مضامين الفوضى التي يعيشها العقل المصري منذ عقود، عقل أخذ في الانهيار على ذاته لعقود طويلة ما الذي يمكن أن نطلبه منه الآن؟

علينا أن نحمد المولى أننا مازلنا واقفون على أقدامنا، ولكن دون عقول أو بعقول ثأرية أو بعقول تمجد الفوضى، أو بعقول انسحابية وخائفة أو بعقول لا ترى الضوء، ولم تعد تميز بين القبيح والحسن، تريد أن تعيش وكفى، إذا كنت ألوم العصر الملكي على عشرات الخطايا التي ارتكبها في حق المصريين، فلأن مرتكبو هذه الخطايا كانوا غير مصريين أما ما الذي يمكن أن أقوله عن خطايا العصر الجمهوري منذ الثورة حتى الآن، فإنني أتركه لكم لتفكروا فيه على نار هادئة.

(٦)

تحقير الذات .. ثأر الذات الحقيرة

نتسلق الطريق إلى العدمية رويدًا رويدًا، وواحدة من معالم هذا الطريق هي تحقير الذات حتى الثمالة، كأننا وضعنا كؤوس المهانة والذل والاستذلال والاستضعاف وأفرغناها في جوفنا غير نادمين، كأننا وُلدنا دون إحساس داخلي بمعنى الرجولة، كأننا مجموعة من الخانعين والمطايا لأصحاب المال والسلطان والجاه والقوة والعنف.

لأننا فقدنا القدرة على أن نأكل من عرق جبيننا وتحولنا إلى الأكل من عرق جبين الآخرين الشاذين جنسيًا، وبالتالي تفتت جميع الصور الذهنية التي بُنيت في الماضي عن الإنسان في المحروسة، فهل نحن كذلك فعلاً؟ وهل فقدنا القدرة على الإحساس إلى هذا الحد؟ الحد الذي أوصلنا إلى تحقير الذات بمناسبة وبدون مناسبة، فقراء أو أغنياء، أقوياء أو ضعفاء، أصحاء أو مرضى.

وبعد تحقير الذات لسنوات، ظهرت الذات الحقيرة كسلوك مكتسب أخذ في التطور مع الوقت نتيجة تحقير الذات المستمر، الذات التي

تقتل وتصلي، تكذب وتدمع، تمتلئ بالحنان وتتذلل في ميوعة، حالة غريبة حين تجد أمامك مثل هذا النوع من الإنسان، الذي يأتي من بعيد على هيئة فيل، وحين تسمعه تتأكد أنك تستمع إلى نملة، حتى النملة أشرف منه ألف مرة. وصلتْ الذات الحقيرة إلى أقصى حدود المؤامرة فهي تبيعك وتبيع آبائك وجدودك وتبيع نفسها فوق البيعة، ما الذي أوصلنا إلى ذلك؟

الديكتاتورية، المساعدات الخارجية، تزايد الهوة بين الطبقات، الإحساس بالدونية، المرض، هل نخشى التخلص منهم إلى الدرجة الذي أصبحت معها هذه المركبات جزءًا من صورتنا في المرآة والصورة الضوئية، وفي كل ما يعكس صورنا؟

كنتُ في أحد فنادق النجوم الخمسة، على ميعاد مع ذي شأن من دولةٍ ما، جلسنا نتحدث لدقائق، ثم دخل دكتور مصري لامع الوجه أحمر البشرة لزج الشعر، أقبل على أحد الخليجيين فقبل يده وقال له يا مولانا، ثم رأيت فجأة قرنين سريعين يكبران في قمة رأسه بسرعة عظيمة، وحين علمتُ باسمه اكتشفت أنني أمام أحد الأساتذة في كلية قانون معروفة، اسمه (كالطبل) في كل الصحف.

تذكرتُ ما كان يفعله بعض الأساتذة في مدارس الخليج وجامعاتها، ثم تذكرتُ ما يفعله المدرسون في المدارس الخاصة المصرية الآن، ثم تذكرتُ ما يفعله بعض أساتذة الجامعة في زملائهم لدى عمداء الكليات ورؤساء الجامعات، وتذكرت ما يفعله هؤلاء مع ضباط الشرطة، واكتشفتُ أن حقارة الذات وصلت إلى درجة ميوعة كلمة (باشا) بين المسؤولين عن أمن الشارع والمواطن.

بالله عليك كيف تأتمن روحك مع السيد (الباشا)؟ وهل يحمي الباشا من هم أدنى منهم مرتبة؟ ثم لماذا نتحدث عن أنفسنا بشكل مباشر أو غير مباشر فنسيء إلى شعبنا ووطننا وديننا وأخلاقنا وميراثنا التاريخي كله؟ نحن من كان يحكم العالم ذات يوم، وإذا كنتُ قد رددت هذه العبارة في بعض الصفحات فأنا أرتكز على حقيقة عالمية، امتزجت بحقيقة التسول والدخول السرطانية والفساد والدخان الأسود وابتذال الذات في النهاية.

حرية الكلام والابتذال وتحقير الذات مكفولة للمواطن المصري العبيط والأهبل والساذج، ما رأيكم في الدور الذي نمارسه الآن في الساحة الدولية؟ دور الوسيط أم دور العبيط؟ فلنستمر في إهانة اسم (مصر) وتاريخنا كله، فقد أصبحنا من أبناء الذات الحقيرة.

كيف انتقلنا إلى هذه الحالة؟ ومتى كانتْ؟ في العهد الملكي أم الجمهوري؟ لو كان الفلاح المصري يفعل ذلك منذ آلاف السنين لكنّا شعبًا بلا هوية، شعبًا حقيرًا ليس له لون ولا طعم ولا رائحة، لكننا من المؤكد بدأنا نفعل ذلك مع ازدياد الفقر والهوان ووطأة كتم العقل واللسان وتشويه الشخصية، ولا يمكن أن يحدث ذلك دون مركبات نقص عضوية مستمدة من السلطة وعجزها عن مواجهة الفقر والمرض نحن لا نؤمن بأنفسنا أو بما لدينا، فكل صاحب جاه يعالج في الخارج وكل من وصل صوته إلى السلطان – في ساعة رضا – يمكنه أن يُعالج في الخارج، ولكن ماذا عن آلاف المرضى المحرومين؟ مرضى بلا قيمة وبلا هوية، ولا معنى لأصواتهم مهما علت، نحن مواطنون بلا قيمة وبلا وزن، وانسحبت مضامين انعدام القيمة وموت الوزن على كل شيء في الوطن، فأصبحنا مواطنين بلا وطن، وأصبح الوطن بلا مواطنين، ولم توحدنا عذاباتنا لأننا أصبحنا نبحث عن الحلول بشكل فردي، وحين انتهت روح المجموعة وقفزت روح الفرد فقدنا روح الوطن، ولم يعد الوطن وطننا، أصبح وطن القافزين بالباراشوتات من السماء، أصبح وطن مريض سقيم عليل فاقد الرغبة في الحياة.

ما رأيكم في مسألة استفحال أنفلونزا الطيور خلال عدة أسابيع؟ وما هذه الاكتشافات الفجائية والسريعة يومًا بعد آخر؟

وطن مريض وسلطة مريضة ورجال سلطة مرضى ومواطنون مرضى، هل أصبح الوطن مرحاضًا عامًا لكل صاحب قوة أو جاه أو سلطان؟ هل أصبح الوطن رذيلة وامرأة ساقطة؟ هل أصبح الوطن بلا وطن؟ بعد أن هُنّا على أنفسنا إلى هذه الدرجة، لماذا يخاف صاحب المال في الخليج على ماله لهذه الدرجة؟ ولماذا يبتذل نفسه إلى هذه الدرجة؟ وماذا يريد بعد ما لديه من خوف الفقر وذريعة المستقبل وغائية الغد المظلم؟ والغريب أن الله لا يتركهم يهنأون بهالهم وما جمعوه.

ما الذي لوّث أبناء الوطن؟ ومن الذي باع الوطن؟ ومن الذي اشترى الوطن بأبخس الأثمان وأنجسها وجعله عليلاً بلا أمل في الشفاء؟
ما حالة السكون التي عليها هذه الأرض الخرساء التي نعيش فوقها، فلم تعد تمنحنا أمانًا ولم تعد تمنحنا شعورًا بالوطن؟
كأن الوطن كلمة في نشيد يردده ببغاوات بمساعدة ببغاوات أمام مجموعة من الببغاوات الأغبياء ليسمعه كل صاحب ذات حقيرة، فتخرج من الأذن الأخرى غير مأسوف عليها، ثم نسأل بعد ذلك عن (ما تقولش إيه اديتنا مصر)، عن أي مصر يتحدثون.

مشاهد الماضي تتكرر،ما كان لدى الآخرين في أوروبا فيما بعد العصور الوسطي يتكرر هنا بشكل أو بآخر، خائن آخر مثل القسيس (فلنر)

الذي كان يتظاهر بالورع والتقوى أيام (فردريك) الكبير حاكم (بروسيا)، والذي تقلد وزارة المعارف في عهد (فردريك وليام الثاني)، بعد أن وعد بتقديم نفسه كأداة طيعة في تطبيق سياسة العاهل الجديد الذي أراد استرداد العقيدة الدينية بقوة، فأصدر قوانين تحرم تعليم ما لا يتفق مع التعاليم البروتستانية ونص رقابة على وسائل النشر، وأمر بطرد كل مدرس مشبوه بالإلحاد أو الزندقة، أليس هذا ما يحدث الآن بشكل أو بآخر؟ ألا ننظر في مرآة التاريخ أبدًا؟ يزداد عدد ضباع السلطة الملتفون حول مائدة السلطان – أيًا كان السلطان فقد عرفناه من قبل – ضباع شرهة ونهمة ذاتَ ذاتٍ حقيرة، تُمارس استلاب الشخصية والروح وبقية العزة وثمالة الكرامة حتى لا يتبقى شيء في مائدة الروح لدى الناس فيتحولون إلى هياكل خربة، تمارس لعبة تحقير الذات بمبرر وبدون مبرر خوفًا من مزيد من التشويه.

المشكلة الحقيقية والمتأصلة كون هذه الذات بعد أن تشبع، تظل تمارس حالة التحقير، كأنه لم يعد لديها لعبة غيرها لتستطيع أن تعيش، ولكنها في النهاية حياة الفئران في البالوعات ومواسير المجاري، أي حياة حقيرة ارتضينا، ولماذا وصلنا إلى هذه الحالة المزرية؟

المصيبة الأكبر أننا نخشى مثل هذه الاعترافات أمام الآخرين الذين يتندرون علينا بضحكاتهم وهمساتهم وهباتهم وأوامرهم وصبيانهم وكلابهم وحريمهم وجواريهم.

نحن أبناء الشمس والنيل وأحمس ورمسيس ومحمد وعيسي والثوار القدامى، ماذا فعلنا بأسمائهم وماذا فعلنا بأنفسنا؟ كيف نتخلص من أصحاب الذوات الحقيرة؟ وكيف نطهر نفوسنا من آثار تحقير الذات؟ أسئلة كبيرة ليس لدى أو لدينا إجابات عليها.

أسوأ ما في التفكير؛ الأسئلة، والأجمل هو الأسئلة أيضًا، العيون تمتلئ بالأسئلة، والإجابات أضغاث أحلام وتكرار لأوهام القدرة على الفعل والحركة، أتطلع حولي فلا أجد سوى أطفال صغار نعدّهم بشكل أو بآخر لهذا المصير الأسود الذي لم نستطع النجاة منه، فكيف يصدق السلطان أننا نحب هذا الوطن رغم كل ما فيه، ونحن سعداء بالموت فيه وله، ولكن فقط ونحن رجال.

مرة أخرى يقفز القاتل الاجتماعي التسلسلي غير المباشر إلى الصورة، فلا يمكن التغلب عليه بإحساس من حقارة الذات، لقد أوصلنا هذا القاتل الهلامي المتسرب في كل الأمكنة في هذا الزمان إلى حالة الذات

الحقيرة، أيضًا جزء من البيئة المستلبة التي تمكنه من العمل بسرعة وبسهولة في اجتثاث الأرواح.

المدهش أننا في النهاية القاتل والمقتول، فنحن نعمل بسرعة لصالح القاتل كي يتم فعلته فينا في النهاية فنستريح.

والمعضلة أننا لن نستريح بل سيزيد هواننا، إنه يمثل بصورنا وعقولنا في كل ميدان وفي كل صورة.

(٧)

العقل والجسد والصوت.. الانسحاب الأخير

سألني صديقي: ما رأيك في حالة الانسحاب التي نعيشها؟
سألته: أي انسحاب تقصد؟ انسحاب في حرب ماضية؟ أم انسحاب العقل من المشاركة في المعارك الضارية الناشبة في الصدور؟ أم انسحاب الجسد واختيار الظل البعيد للراحة؟ أم انسحاب الصوت الثوري الذي قتلناه؟ أي انسحاب من هؤلاء تعني؟

ابتسم وأشاح لي بيده، كأنه يقول لي، كل ذلك يا صديقي، انسحاب من المسؤولية، الحركة حالة وشاية لكي ينسحب آخرون أو يُسحبوا إلى مجاهل المعتقلات، وتغييب العقل بالمخدرات والنساء واللا معقول أنشطر يا صديقي إلى نصفين ينسحب نصف، ويتحول نصف إلى رماد ودموع تتبرز فوقه الكلاب والضباع.
هذا هو ما يحدث الآن، الجميع يفضل الصمت، أما من يتكلم فنحن ننتظر مصيره القريب، سجن أو معتقل أو موت فجائي.

كيف لا ننسحب من المصير؟

كيف لا ننسحب من معركة ليست معركتنا؟

كيف لا ننسحب من مدارسنا وجامعاتنا ومستشفياتنا ومؤسساتنا؟

كيف لا ننسحب ونتحول إلى قطيع الخراف والأرانب؟ نرتعد دائمًا ونتحول بأقدامنا عائدين للخلف وعيوننا مظلمة في الأمام؟

كيف لا ننسحب أمام فتاوى ممكن أن تسلم برقابنا إلى حبل السلطان؟

كيف لا ننسحب من برامج حكومية ليست لديها القدرة على الفعل؟

كيف لا ننسحب من جامعة لا تمارس سوى دور الذاكرة المشوهة؟

كيف لا ننسحب أمام حالات الثأر التسلسلية؟.

هل نحن مصابون بالفصام لنثأر وننسحب ثم نقيم عالم الفوضى؟

نحن مصابون بجميع العاهات والتشوهات النفسية والعضوية، نحن مغيبون بإرادتنا، لأن إرادة الآخرين فاقت كل شيء، فقدنا الإحساس فنتكس إلى الوراء في ارتياب خوفًا من أن يضيع العمر دون أن نسمع أو نرى، نتحول إلى الخلف فقط، فإذا سمعنا كل شيء ورأينا كل شيء فنحن في النهاية نفضل الانسحاب فقط، كان لنا انتفاضة أخيرة في العصر الجمهوري، حدثت في غفلة في الزمن، ثم بدأنا بعد ذلك ننسحب إلى الوراء دائمًا، نفقد القدرة والأرض والضمير والإحساس

فلا القانون موجود ولا الأمان موجود، نشبه في ذلك معركة الرجل مع المرأة – مع الاعتذار للتشبيه – إنه يكسب معركته الأولى فقط، ثم يخسر كل معاركه وحروبه في النهاية، فينسحب، ويتحول إلى كائن إلى لا إحساس فيه ولا إرادة ولا حركة.

متى نُفضل الانسحاب؟ الانسحاب لم يعد رفاهية بل قدر ومكتوب، الإرادة التي نمتلكها هي إرادة قانون القصور الذاتي، فنحن لا إرادة لنا في الحقيقة، فهناك إرادة أعلى هي التي تحركنا وتوجهنا، نحن ننسحب إلى زمن الجهالة والجمود حتى رد الفعل لم نعد قادرين عليه، كأننا أصبحنا جسدًا مائيًا يمتص الأفعال ولا يصدر أي ردود للأفعال، نغلي كالقدر على النار ثم نسكن في اللحظة التالية، نفضل التهدئة والهدنة والصمت والتعالي – واخد بالك من مسألة التعالي – وأخيرًا وليس آخرًا التغابي والانسحاب.

هل كان الانسحاب هو الحركة الأخيرة؟ لا يمكن لبلد دخل سجونه ومعتقلاته آلاف من أبنائه الأوفياء المتمردين أن لا ينسحب، ولا يمكن لبلد دخل عشرات المعارك الخاسرة أن لا ينسحب، ولا يمكن لبلد يطأه الكبير والصغير الآن أن لا ينسحب، ولا يمكن لبلد ما زال

يستخدم التمائم والتعاويذ أن لا ينسحب، ولا يمكن لبلد أكل بعض أغنيائه وأذكيائه لحم فقرائه وأغبيائه أن لا ينسحب، ولا يمكن لبلد لا يُسمع فيه سوى الصوت الواحد أن لا ينسحب.

انظروا إلى آلة العود في الموسيقي العربية القديمة، كانت موسيقي الصوت الواحد، وكنا نعترف بذلك، طورنا الموسيقى فشوهناها، لأن خليتنا خلية الصوت الواحد المسيطر المتفرد المبدع السلطان.

أجلس على النيل منسجمًا، فيأتي شرطي ليراقبني عن بعد فأنسحب إلى ركن قصي بعيد فأجد آخر غيره، أركب سيارتي لأجد بعض حاملي الأكتاف الذهبية أو الملونة يتطلعون إليّ فأنسحب، أجلس على المقهى، فأجد مخبرًا فأنسحب، وسواء كان ذلك حقيقيًا أم متخيلاً فأنا لا أملك سوى الانسحاب، والانسحاب فقط، لأنني فقدت القدرة والإرادة على القتال وخوض المعارك، فقدتها منذ زمن طويل، يوم قبلت الرشوة والفساد والمحسوبية والنطاعة والبلادة، أنا لا أخص أحدًا منّا، بل كلنا، مِن الحقير إلى السلطان سيد القوم.

أتطلع في وجوه الطلبة والطالبات أمامي، على صغر العمر؛ حالة من الانسحاب والخوف المستشري في العقول والأجساد والأصوات،

صوت خافت خائف يرتعد، ورأس مطأطئة للأسفل وعين زائغة، من فعل بهم ذلك؟ أين ذهب التمرد؟ التمرد هو دم الثورة العلمية والعقلية، عجبًا لبلد وضعتْ ضابطًا وعسكريًا على كل مدخل، وعربات مصفحة للأمن المركزي أمام كل جامعة ومعهد ومسرح وسينما، كيف تُنادون بالثقافة والتطور العلمي والفني وأنتم تخلقون روح الخوف والانكسار، ومع استمرار هذه الروح يولد الانسحاب.

من قتل إرادة الحركة في أبناء وطني؟ بعض من أبناء وطني؛ بعض من محظيات السلطان، بعض من خصيان السلطان، بعض من أنذال السلطان، والغريب أن كلهم من أبناء وطني.

أُصاب بالغثيان حين أجد دولاً عربية تدافع عن حقوق الإنسان لدينا، أهذه الدرجة استشرى الهوان؛هوان المحكوم على الحاكم،هوان المظلوم على الظالم، هوان الإنسان في وطني؟

ولكننا من ارتضينا ذلك لأنفسنا، أعطينا السلطان ما لنا، وهبنا السلطان كل ما لديه، وحرمنا أنفسنا من حق الحياة الكريمة، بيدنا لا بيد السلطان حدث انسحابنا وهواننا، أليس كلنا مصريون، ألسنا كلنا أبناء هذه الأرض؟ لماذا نحترق نحن فقط؟ ولماذا نموت نحن فقط؟ ولماذا ننسحب نحن فقط؟ هل أنا مخطئ؟ نعم... ألا يموت السلطان

أمام السلاطين الأقوى؟ ويحترق أمام الأقوى؟ وينسحب ويتخاذل أمام الأقوى؟ فيمارس حالاته علينا، أصبح أكبر لاعب في ملاعب الوطن، مخطئ أنا أيضًا، فهناك لاعبون أكبر اسمهم السفارات الأجنبية، أو هؤلاء الذين يمدون بأيديهم إلى أفواهنا، أصبحنا فوهات فقط، تعيش لتأكل، وتلقي خلف ظهورها بكل شيء نبيل، نحن من كنا نبلاء العالم وسلطانه، أصبحنا خادم العالم، الخادم الكسول اللاهي الضعيف الذي سقطت منه ذاكرته وأُعدم أيضًا ذكاؤه.

وحين تكون مريضًا بكل تلك الأمراض من الكسل العقلي واللا مبالاة والجوع والخوف والضغط والسكر والكبد والكلي والسرطان والأمراض العصبية المتفشية؛ عليك أن تختار الانسحاب، أو يختارك الانسحاب، لا فرق، فأنت في الحالتين لا وجود لك ولا فعل لك ولا عقل لك ولا جسد، وحتى الصوت تم اغتياله.

من الذي عبث بحياتنا؟ مصريون وخونة، ومن الذي عبث بثقافتنا؟ مصريون وخونة، ومن الذي عبث بعقولنا وأجسادنا؟ كلهم مصريون وخونة، ماذا فعل المصريون بالمصريين؟ تبقى تلك المقولة الجميلة لرجل أمين في وطن ضحى بكل ما فيه.

الانسحاب حالة من الغباء اللا إرادي، يتناقض مع الثأر التسلسلي، لكنهما مربعان مكملان لرقعة الشطرنج القذرة التي نعيش فوقها الآن، حالة لم يعد فيها الرجل رجلاً ولا المرأة امرأة ولا الطفل طفلاً ولا الطعام طعامًا ولا الفن فنًا ولا الثقافة ثقافة ولا الوطن وطنًا.

إن جام غضبنا نصّبُه أولاً فوق رؤوسنا، وإذا كنا تحولنا إلى زمن الفعل الفردي المسلوب، فإن الفعل الفردي الإرادي هو الذي سيعيدنا من حالة الانسحاب، وإذا استمر الأمر على ما هو عليه فإننا كما يقول (فولتير) سنرث العالم كما وجدناه في سخافته وشره وفساده، ولكننا أيضًا سنكون أكثر سخافة وشرًا وفسادًا، انسحابنا هو هذه المقولات الثلاث، انسحابنا ترسيخ وتأكيد على موت الحرية، وترسيخ لمبدأ فساد الروح.

كنا روح العالم وأسطورته، فكيف رضينا أن نقف في الظل ونتفرج على من يدورون بيننا يصنعون من جماجمنا كؤوسًا للشراب ومن فتحات أجسادنا أماكن للرذيلة، نحن نستحق كل ما جرى ويجري وسيجري، لأننا تخلينا عن المجموع لصالح فرد، فرد واحد فقط لا غير، هذا هو الحساب الأخير.

ها هو القاتل التسلسلي الاجتماعي مرة أخرى يغرز بمخالبه وأسنانه فينا، فالجسد أصبح مريضًا وضعيفًا، وحريته في الحركة محدودة للغاية، أشك في أنه يستطيع القيام بها، كأن كل جزء في الجسد يأكل الجزء الآخر لصالح هذا القاتل اللعين، كأنك تنتظر أن يمر الليل عليك ويأتي الصباح فتجد نفسك بعضًا من مخالب وأنياب، أما الجسد فقد اختفى، مرّ عليك القاتل التسلسلي فلم يترك في جسدك سوى هاتين الإشارتين.

هل هذه حدوده النهائية، أم مازال لديه الأسوأ؟

(٨)

قانون الغابة .. قانون الأقوى

حين يسود قانون الأقوى يتحول المجتمع إلى غابة؛ غابة بشعة، في الماضي سادت قوانين القبيلة والعشيرة والأسرة، وكان من نتائجها تلك المحاباة التي يمكن أن تظهر في مساندة الأقرباء في التعيين والتوظيف والتوزيع في الجندية وفي الحصول على مكاسب مادية أو أدبية بأقل مجهود يذكر، لم نتخلص من ذلك منذ آلاف السنين ولم تؤثر الحضارة أو الثقافة كثيرًا في تغيير هذا السلوك المعوج، وكم طالعتنا الصحف بأخبار، ها هم أبناء أساتذة كلية الطب، وها هي تعيينات بعض القضاة، وها هم المديرون ورؤساء مجلس الإدارة، أصبح معيار الكفاءة للمرة الثانية مهضومًا مرة للتأكيد على سياسة الولاء والغباء، ومرة أخرى للنزعة القبلية التي لم تختف رغم العديد من الحضارات التي مرت علينا. كل ذلك يؤكد على متلازمة السلطة ورسوخها لدى الحاكم والمحكوم، ولأنهم أمنوا العقاب فقد سادت شريعة الغابة.

ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل تعداه إلى تطور قانون الأقوى، فابن الضبع الصغير الذي لا يستطيع قتل فأر حين يكون وحيدًا وبعيدًا، يمكنه أن ينكل بقطيع من البسطاء إذا شعر بأنه قريب من مراكز السلطة وبأن هناك من يحميه، يمكنه أن يقتل أي عابر في الطريق دون أن يطرف له جفن، يمكنه أن يسبّ من يريد ولا يخاف من عقاب.

ونظرة واحدة على أغلب أبناء المسؤولين أو أصحاب السلطان أيًا كان نوعه، ستثبت هذا السلوك الدموي والعدواني.

ما الذي أوصلنا إلى هذا؟ سلسلة الديكتاتورية وسيطرة رجال الأعمال، وعلاقة رجال الأعمال بالسياسيين، وضباط الشرطة ورجال قضاء ورؤساء مجالس إدارات، هل هذا هو المجتمع الذي قامت الثورة من أجله؟ إنه أسوأ مليون مرة من مجتمع الملكيّة، كأننا طردنا المستعمر الأجنبي اللعين لنأتي بمستعمر ألعن منه، هذا المستعمر من لحمنا ودمنا وصلبنا.

هل سعى المستعمر الأول نفسه إلى ذلك عملاً بنظرية المؤامرة؟ أعتقد جازمًا بأن هذا الرأي له وجه من الصواب والحقيقة، فقد ساعد المستعمر الأول من تولى أمرنا بعده على أن نلعن اليوم الذي خرج فيه المستعمر الأول، أليس هذا ما أراده المستعمر الأول؟ وها نحن نعترف

صاغرين بذلك الآن، فما الذي غيرناه؟ زيادة في غريزة حب القتل وتذوق دماء الفقراء والبسطاء، وحتى الفقير يمكنه أن يتلذذ بدماء من هو أفقر منه.

سلسلة لا متناهية من التغيرات، يمكن أن تعود لأسباب كثيرة ذكرتها من قبل، ولكن مَن ندينه، ومن يقف وراء كل ذلك؟ نظام فرعي لا يحافظ سوى على وجوده فقط ضمن سلسلة النظام الكلية، فيتصرف كل جزء في النظام بنفس الطريقة، كأنها خلية وراثية يعاد تشكيلها، كأنه قدر لن يتغير.

جميعنا يشكو من قانون الغاب، ولكننا نلتزم به جميعًا حين يأتي الدور علينا، يمكن أن تكون ضحية اليوم، وقاتل سفاك دماء غدًا، هذا هو لب قضيتنا جميعًا، هذا النوع من النقد غير موجه لشخص معين أو بذاته، إنما هو موجه إلينا جميعًا، نحن الداخلين في السلسلة والخارجين فيها، نحن الضحية والقاتل، نحن الضعيف والقوي، نحن الفقير والغني، نحن الابتداء والمنتهى.

ما الذي أدى بنا إلى قانون الغاب؟ الخوف من الفقر، متلازمة السلطة، حيث نكون قريبين منها في أي مرحلة من مراحل السلسلة فنحن نتصرف مثلها، هذا لب الأمر وجوهره كأننا لم نتعلم ولم نتثقف ولم

نعرف الرحمة أو التسامح أو الحنان، كأننا نختزن ذلك لأفراد محددين وليس لكل الناس، أبناء الوطن الذين يقعون في نهاية السلسلة حيث لا حائط خلفهم فيسقطون جميعًا من فوق الجرف غير مأسوف عليهم، لأنه لا قيمة لهم، سواء مات منهم خمسون أو ثلاثمائة أو ألف، فهم لا يساوون شيئًا، لأنهم بعيدون تمامًا عن أي حلقة من حلقات السلطة في السلسلة، إنهم واقعون في الفراغ والخواء والعدم في النهاية.
ترى كم من هؤلاء يعيش على أرض المحروسة؟ ملايين، أعداد لا متناهية من الخواء والعدم، الذين بلا قيمة في نظر الملتصقين بكل أشكال السلطة.

من أسوأ حوارات حياتي، ذلك الحوار الذي دار ذات يوم مع أحد رؤسائي، والذي تقلد منصبًا رفيعًا بعد ذلك بسنوات ففعل ما أراد، كان يسألني ماذا تفعل مع ابنك أو ابنتك إذا أردت أن تبحث عن عمل لهم؟ بعد لحظات من صمتي قال لي إنه لن يتورع شخصيًا عن رفد أي موظف من هؤلاء ووضعه أو وضعها مكانه، يجب أن أؤّمن لهم عيشهم وحياتهم.

هكذا إذن الأمر يجب أن تطأ قدمك جثث الضعفاء ذوي الكفاءة الذين ابتلاهم الله بوجودهم وخلقهم على أرض المحروسة فأصبحوا

مهانين مذعورين خائفين قانعين بكل ما يحدث لهم، وصلَ الأمر ببعضنا إلى قبول الظلم والإفك بتسليم وخنوع، وهذا هو الوجه الآخر للمأساة.

كيف نفسر سلسلة السلطة، سلسلة الخنوع؟

احترتُ في تفسير هذا الأمر كثيرًا، لابد إذن للوجود من سالب وموجب حتى تكتمل الحياة، السلطة هي الفعل الموجب الذي يفرز تغييرًا، والخنوع هي الفعل السالب الذي لا يفرز أي شيء، السلطة تفرز الخوف، والخنوع شديد الشبه بقطعة الحجر التي تقذفها فتظل تنطلق حتى تسقط وتكون حركتها على الأرض نتيجة ردود أفعال لحالة السقوط، إن الحجر لا يعترض ولا يسأل ولا يتساءل، إنه حالة السكون الخانعة، والذل اللا نهائي.

يستحق الحجر قانون الغابة، الجميع يطأه، وإذا كان غير موجود فإنهم سيطأون الفراغ، هل توجد سلطة بلا شعب، أعتقد أنه نحن، فنحن في وادٍ والسلطة في وادٍ آخر، لا حلقة بيننا سوى قبول الأوامر، وأقصى حالات تمردنا هو عدم تنفيذ الأوامر، فهي رفضنا الوحيد. البعض يترك نفسه ليطأه الآخرون، والبعض المتمرد لا ينفذ الأوامر، حالة دفاع سلبي وحيدة، أمام جيوش سلسلة السلطة.

قامت الثورة الفرنسية للمساواة بين الضعيف والقوي في الحقوق والواجبات، وبين الفقير والغني، وسيقف القوي والغني أمام القانون مهما كانت تسميته ومهما كانت عائلته ومهما كان غناه، ومهما كانت حلقات السلطة التي ينتمي إليها، وهذا هو ما يحدث في المجتمعات الخارجية، الإحساس بالأمان، لأنه لم يعد أحد خارج السلطة ولم يعد أحد ظهره للفراغ والخواء، فظهْرُ الشعب في ظهر السلطة، لا تستطيع السلطة أن تمارس دورها دون رقابة وموافقة من الشعب، والشعب يمارس دوره بإيجابية، وإيجابيته مفرطة، هذا هو ما كان يجب أن يكون.

لكن الحكومة والسلطة بكل أشكالها لدينا نجحت في إقامة جدار عازل بين الحلقة الأخيرة من الشعب وبين السلطة، أو سلسلة النظام المتسلط، وبالتالي أصبح هناك قطيعان، قطيع للضباع النهمة وقطيع للأرانب، يكفي أن يدخل ضبع صغير رضيع إلى حظيرة الأرانب فيلتهم منها ما يريد دون أن تنبت الأرانب ببنت شفة، أصبحنا سوداويين جميعًا إلى هذه الدرجة العنيفة من حب الدم وحب الخنوع.

سلسلة السلطة تعني في المثل العامي (القرعة تتباهى بشعر ابنة أختها) هذا هو بالفعل ما يحدث، ولأننا مجتمع فقد ضميره ويعيش في خزعبلاته وترهاته، وما زال يصدق الجرائد الحكومية وتصريحات

الخفير والوزير ويسمع عن دولة المؤسسات ودولة القانون، لم يكتشف أن هناك كلمتين ناقصتين في هذه المسميات (دولة المؤسسات المزيفة)، و(دولة قانون الغابة). ها نحن أخيرًا أمام العالم.

إن مشكلة انسحاب الناس والشعب في الحياة، هو توليد حالة من العدمية أعتقد أننا نقاسيها الآن ونعاني منها جميعًا، فالبيئة نفسها لا تصلح إلا بصلاح العقل والإحساس بالوجود والأمان، وحين تكون المعرفة باطلة والوجود باطل والأمان باطل، تتحول كل المركبات العضوية للمجتمع (من بشر وبيئة) إلى حالة من العدمية، فيفسد كل شيء.

مجتمع الولاء البغيض السمج، الذي يولد فيه ابن أحد القابعين في سلسلة السلطة، فيضمن له عمله وهو في (اللفة)، بينما أمامه المئات والآلاف الذين لا يجدون عملاً، هؤلاء الذين هربوا إلى كل مكان في العالم بحثًا عن وجودهم فيتعرضون للقتل والمهانة، لكنهم يدركون أن القتل والمهانة والذل في الخارج أهون عليهم مما يحدث لهم في وطنهم، هذا الوطن الذي أصبح وطن شعب آخر من المتسلطين والبغاة والعدوانيين والقتلة، ونحن جميعًا مشاركون في ذلك بشكل أو بآخر.

عليك أن تزن قواك جيدًا قبل أن تتأهب لدخول أي معركة سواء فُرضت عليك أو فرضتها بنفسك على الآخرين، عليك أن تتحسس أنيابك ومخالبك وعضلاتك وطاقتك، عليك أن تتحسس الواقفين خلفك في سلسلة السلطة والذين سيساندونك ولا يتوقف ذلك على رجال السياسة والطب والقانون وغيرهم، بل هو حالة جميع طبقات المجتمع، (أنا وأخويا على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب)، حالة من اللا مبالاة والغفلة بسبب الانتماء للطبقة غذاؤها الجهل؛ ولا استثني من ذلك أي إنسان ولا حتى نفسي؛ ثم تفردنا نحن دونًا عن شعوب العالم، بأكل بعضنا البعض أحياء، مثل سلسلة الغذاء في علوم الحياة، لا سلطان فيها إلا سلطان القوة والقدرة على البطش، وفي النهاية ماذا ستكون النتيجة؟ عودة للعصر الحجري ولكن ونحن نرتدي ثياب ملونة وسيارات فارهة ونسمع الموسيقى الراقصة ونركب الطائرات، ونجلس أمام الإنترنت، ولكن أسناننا وأفواهنا تقطر دم ضحايانا.

تؤكد متلازمة السلطة نفسها بجانب القاتل التسلسلي الاجتماعي، هل هما شيء واحد؟ أم خلايا منقسمة فاسدة تولد خلايا فاسدة أخرى داخلنا وخارجنا نعاني منها، ونتمسك بها في ذات الوقت في ظل قانون

الغاب الأحمق الجاهل الفاسد المرابي في دمنا وأرواحنا ووجودنا كله؟ وهل معنى ذلك أننا نفعل ذلك عن عمد وسابق ترصد؟ هل الهدف هو الوصول إلى مجتمع له صفات معينة؟ وبالتالي التخلي عن بقية المجتمع من الفقراء والمعدمين والذين ليس لديهم نصير في السلسلة، سلسلة السلطة؟ أم أن ذلك يشمل كل المجتمع؟

في قانون الغاب ليس هناك خيار وفاقوس، وفي سلسلة الغذاء هناك دائمًا الأقوى، ومادام القاتل التسلسلي في بيئة ترتع بالفساد الاجتماعي والروحي والأخلاقي، ومادام النظام غير موجود، ومادامت متلازمة السلطة تعطي مناعة للبعض، فإننا في طريقنا اللانهائي للانهيار، كأنه عقد اجتماعي جديد على استمرارنا في التنكيل ببعضنا البعض دون أن يطرف لنا جفن.

(٩)

روح المصري الرخيصة

يعيش بعض المصريين في دول أوروبية وهم مكتسبون قيمتهم وآمنون على وجودهم بسبب قيامهم بتربية بعض الكلاب في منازلهم، يحدث ذلك في فرنسا والعديد من الدول الأوروبية، لأن روح الحيوان مهمة وروح المصري رخيصة، أو روح كل ما ينتمي لدول العالم الثالث لا قيمة لها. ما الذي أوصلنا إلى هذه النقطة الصفرية العدمية؟

سمعتُ عن المغامرات المميتة للراغبين في العمل في الدول الأوروبية من شباب مصريين بدءًا من عمر ستة عشر عامًا حتى الأربعين، وعن كيف يمكن لهم أن يقتلوا بعضهم البعض، أو يقتلهم الناقلون لهم أثناء تلك الرحلات الدامية، وكيف يمكنهم الحياة بعد أن هربوا من مصر وما فيها، كأنها رحلات العبيد من إفريقيا إلى أوروبا في القرن السابع عشر والثامن عشر، لكنهم لا يجدون حلاً آخر.. ما الذي دفعهم إلى ذلك؟ هل هي لقمة العيش؟ إنه يعلم جيدًا في رحلته أنه قد يتعرض

للقتل والموت في أي لحظة، إذن فهي ليست لقمة العيش، إنها المهانة المترسبة في الأعماق بسبب الوجود في بلد يأكل أبناءه كل لحظة، دون أمل ولا واحد في المليون في الخلاص.

عشرات السنين من الذل والهوان والاستعباد والوعود الخائبة الطائرة دون جدوى، أصبح العهد المصري الثوري الجديد هو عهد الوعود والآمال التي لا تتحقق، لأن لا أحد يؤمن بأن هدف الدولة الأساسي وهدف النظام؛ أي نظام؛ هو تحقيق هذه الوعود، والناس الذين يشكلون الآن جزءًا من سلسلة السلطة أصبحوا يتصرفون أحيانًا كأنهم السلطة، فلا رقيب ولا حسيب عليهم، وإلا ما معنى كسر الإشارة الحمراء، وخلع مقعد المحكمة، والدخول مكان الأبناء لحل الامتحانات خاصة في الشهادات في بعض القرى، ومرور سيارة بميكروفون تذيع الإجابة، وعدم الاعتراف بالأبناء رغم العقد العرفي، وحوادث القتل وسفك الدماء المقيدة ضد مجهول؟!

كلها إشارات على الفوضى، وتكسر حلقات السلطة أحيانًا، أو أنها حلقات واهية، أو عودة لشريعة الغاب. والأدهى من كل ذلك هو أن أرواح كثير من المصريين أصبحت رخيصة، رخيصة، ولا أمل لأن تستعيد قيمتها، ما دام عصر القوة هو العقيدة التي تؤمن بها كل سلاسل السلطة في بلدنا المحروسة.

الأدهى من ذلك أن بعض المتتمين للعروبة يأتون للزواج من قاصرات في القرى، فيبيع الآباء بناتهن غير آسفين مقابل بضعة جنيهات سرعان ما تنتهي، فيعد الأب العدة لبيع البنت الثانية والثالثة والرابعة وهكذا، حالة من الجهل غذاؤها الفقر والدونية، ولا أدري من ألوم، وُعود السياسة، وعود محو الأمية، وعود الكهرباء والماء التي تنقطع؛ أو لا تأتي أبدًا، فقر الدماغ، الطمع والجشع والأنانية المفرطة.. من على وجه التحديد؟

كيف هانت علينا أرواحنا إلى هذا الحد؟ وكيف هنّا على كل أشكال وسلاسل السُلطة؟ وكيف هنّا لدى الإخوة العرب؟ وكيف هنّا لدى الأجانب؟

وإذا كانت العقيدة ضد كل أشكال الانتحار، فقد أصبحت الرغبة اللا إرادية في الانتحار حالة من حالات الرغبة في التخلص من الهوان، أو الرغبة في الثراء.

سألت أحد هؤلاء الأولاد الهاربين إلى بلد أوروبية ذات يوم، ما الذي دفعك إلى ذلك، تطلع إلى بعينين صافيتين بريئتين: "أنا عاوز ألبس بنطلون جينز نضيف، وقميص أبيض كتان، وأحط سلسلة في رقبتي، وأرش على وشي بارفان حلو، صدقني مش عايز أكثر من كده"!

إذن فقد تم خلق نموذج جديد للنظافة والجمال من خلال العائدين إلى هذه القرى بعد طول غياب، لكنهم لا يدرون أنهم عائدون – أغلبهم– من العمل مع المافيا والعصابات، والعمل في التهريب والتسلل وبيع المخدرات، والتحول إلى جنس مثلي، أو متزوجين من عجائز، أو من خلال العمل في مزارع العنب المميتة، والعمل لدى اليهود ومصاصي الدماء. ولكن تبعات الصورة الخلابة السينمائية التي رأوها في النهاية هي المغناطيس الذي لا يمكن الفكاك منه.

إننا نمثل أقصي حالات الطرد المركزي للأبناء، لأننا عبثنا بكل ما هو مصري، عبثنا بأنفسنا وتركنا السلسلة الوحيدة التي تتنفس وتفعل ما تريد هي سلسلة السلطة البغيضة، مليون إنسان تقريبًا تركوا البلد بما فيها بلا رجعة، وخمسة مليون تقريبًا، تركوا خيوط واهية اسمها الإجازة السنوية للعودة إليها، والبقية التي ترقد في الداخل تتنفس جحيمًا كل يوم من السحابة السوداء، إلى مياه الشرب الملوثة، إلى الطعام الفاسد، إلى السرطان اليومي، إلى فقد اهتمام كلي بقيمة هذا الإنسان الذي أصبح ذنبه الوحيد أنه ولد على أرض هذا الوطن، أو هذا اللا وطن، الذي ينتهك عرضه كل يوم في الطابور الصباحي في المدارس الحكومية والخاصة، والذي ينتهك عرضه كل يوم في أقسام الشرطة، والذي ينتهك عرضه كل يوم في المستشفيات الحكومية،

والذي ينتهك عرضه كل يوم في طوابير الخدمات في المؤسسات الخدمية الحكومية والمحاكم، والذي ينتهك عرضه كل يوم على شاشات التليفزيون المصرية والعربية والأجنبية على حد سواء.
وبعد ذلك نشكو من الذل والمهانة، ونسأل أنفسنا: لماذا أرواحنا رخيصة إلى هذا الحد؟!

إذا وجدتَ أن سلسلة السلطة لا تحافظ سوى على نفسها، وأن رجال الأعمال أصبحوا يشكلون الحلقة الثانية في السلطة، وأن رجال السلطة التنفيذية من رجال شرطة وعسكريين أصبحوا الحلقة الثالثة، وأن أصحاب الفكر والمثقفين والأكاديميين ورجال السياسة من الشرفاء أصبحوا في الحضيض، فلماذا لا تقيم سلطتك بنفسك؟
رحم الله (عبد الناصر) الذي جعل من رجال الجيش رجال سلطة دون أن يفقهوا شيئًا في السياسة، فخربت البلد. ورحم الله (السادات) الذي جعل من رجال الأعمال رجال سلطة فأصبحتْ بلد من يملك.
وها هي الآن تتحول أو تحولت عمليًا إلى كائن غريب ومشوه، كل من يملك فيها أي شيء شكل من أشكال السلطة – مالاً أو مركزًا أو عزوة أو بلطجة – يمارس سلطة في غياب كامل للقانون وللمؤسسات، لأن كل أصحاب السلطان صعدوا على أكتاف الأربعة المشار إليهم، في غفلة من الزمن طالت كثيرًا فصعد كل هؤلاء، وأصبح ما يتردد

على نصف لسان شعب مصر (إنت ما تعرفش أنا مين؟)، وهي الجملة السحرية التي تقال الآن في كل الأماكن، والتي تسمح لك بهتك عرض القانون، وفقأ عيون من ينظر إليك، والخوض في كروش من يقف في وجهك، وفي حرق قسم الشرطة نفسه إذا اعترض.

حالة من التسيب الخطير الذي ترك الأرواح في النهاية بلا قيمة، ونسأل بعد ذلك لماذا نحن بلا قيمة وبلا ثمن، بعد أن كنا القيمة الوحيدة في العالم، أو قيمة العالم نفسه، نسأل من فعل بنا ذلك، فلا أجد سوى أصابع الاتهام جميعها تشير إلينا، نحن من فعلنا ذلك بأنفسنا، نحن من ولينا على أنفسنا شرذمة من الموظفين والخانعين ومدعي الألوهية، نحن ضعاف النفوس، شديدي اليأس، ضائعي الروح، نحن من ارتضينا السكنى مع الفئران، نحن من ارتضينا الذل والهوان، فليكن عقاب الله علينا جميعًا، فنحن نستحق ما نحن فيه، ولا ألوم في ذلك أحد سوى أنفسنا، نحن من جعلنا أرواحنا بلا قيمة، فـ"وطينا" للسلطان وكلاب السلطان وفئران السلطان وصراصير السلطان وخراء السلطان في النهاية، وكل هؤلاء هم سلسلة السلطة في بلادنا المحروسة من كل شيء، المحبوسة عن الحرية والديمقراطية والرفاهية والصحة والذكاء والروح.

لعنة الله عليك يا (أفلاطون) ويا (فرنسيس بيكون) ويا (طه حسين) ويا (العقاد)، لماذا زرعتم في عقولنا التمرد وفكرة المحبة على الأرض والقدرة على الرؤية؟ ألم تكن أرواحكم رخيصة أنتم أيضًا؟

أرواح رخيصة، حُرق منها ما حرق في بني سويف، أرواح رخيصة غرق منها ما غرق في البحر الأحمر، وفي الحالتين هرب القاتل بمساعدة السلطة، زاغ (فص ملح وداب)، ولن يعود، لأن أرواحنا رخيصة، الألف منها بقرش في (سوق التلات).

وإذا كان هذا الأذى والقذى آت من السلطة، فهل سكتنا نحن عن بعضنا البعض؟ فها هو ممثل داعر درجة عاشرة ينفي علاقته بابنة مسكينة بعد أن وعدها بالزواج، ويخرج المسؤول عنه جينيًا، وهو من سابق ينفي علاقة ابنه بتلك البنت، وتنتحر زوجة بعد سنوات من الزواج لثبوت علاقة رضاعة مع زوجها في الصغر، وتموت بنت في مستشفى جامعي من الإهمال، ويقتل مجنون شخص ويصيب عشرة داخل ثلاث كنائس، ويهرب الأستاذ (س) إلى لندن بمساعدة السلطة أو عدم مساعدتها؛ لا فرق.

هذا هو ما يحدث؛ هوان وإفك وحمق واسترخاص واستهبال واستعباط، كله فعل في (الإست) ولا مؤاخذة، جميعهم يفعلون ذلك دون أن تهتز شعرة في رأسهم اللامع الحليق.

إذن فنحن نقع بين سلطة أتت بالتزوير، وسلطة أتت بالبلطجة والأموال و(الفِردة)، وربما يفسر ذلك سبب رخص أرواحنا عليهم، إلى أن أصبحت أرواحنا رخيصة علينا أيضًا.

ويبقى السؤال: متى تكون لأرواحنا قيمة؟

حين ينتهي عصر الديكتاتورية وعصر الصوت الواحد، حين يصبح القانون سيد الجميع، ولأنها أضغاث أحلام فأنا أرددها باستمرار، فيكفي أن أموت وأنا أحلم من أن أموت وليس لي القدرة على الحلم، هذه أصبحتْ أعزّ أمانيّ في زمن عز فيه كل شيء.

متلازمة السلطة تبرز في أحد أشكالها في شكل سيطرة السلطة التنفيذية، وتمحك بقية السلطات بها، وليس العكس، مرة أخرى نحن في حاجة إلى روح جديدة يمكن أن نستمدها من بعض النماذج الناجحة التي لا تبالي بالقاتل التسلسلي أو بمتلازمة السلطة، نماذج استطاعت الوقوف في وجه كل ذلك وصنعت لنفسها جزرًا نظيفة منعزلة في قلب هذه البقعة السوداء، نماذج من السلطة ونماذج من القانون، ونماذج من الصحافة والطب والجامعة. أتساءل فقط متى يمكن لنا أن نزيد من رقعتها حتى تعود المحروسة إلى سالف عهدها منارة العالم وحاضرة التاريخ وحاضنة العلم ومنارة الفن والثقافة.

متى يمكننا القضاء على هذه السلسلة البغيضة؟

(١٠)

قبول الآخر وآخرة القبول

كيف تحول المجتمع المصري المتسامح منذ عشرات القرون إلى مجتمع يرفض كل شخص فيه الآخر، خوفًا وطمعًا؟

كيف تحول إلى حالة التنافر والتطاحن والتطاول والرفض والهدر؟

كيف أصبحنا لا نرى سوى أنفسنا؟ ولا نجد مكانًا سوى لأنفسنا؟ ولا نؤمن سوى بأنفسنا؟ كأن كل ما عدانا وهم وسراب وعدم لا يستحق الرؤية أو السمع.

هل أثرت النكسات وانهيار القدوة والقيمة واستشراء سلسلة الديكتاتورية والخوف من السلطة بكل أشكالها فوصلنا في النهاية إلى ما نحن فيه من تغريب؟ كأن كل إنسان فينا يعيش في جزيرة منعزلة محاطة بأسلاك شائكة من الرغبة في الغدر واتقاء الآخر بأي شكل وبأي وسيلة، فلا يقبل الأب أولاده ولا تقبل الأم زوجها ولا يقبل الرئيس موظفيه، ولا يقبل المدرس تلامذته؛ والعكس صحيح، ولا يقبل أصحاب السلطة بعضهم بسبب تناحرهم عليها، ولا يقبل

المرؤوس بقية المرؤوسين لأنهم يزاحمونه لدى صاحب السلطة، لأن القاعدة أصبحت كن قريبًا من السلطة واحمل فأسك خلف ظهرك، فإذا أتتك الفرصة تخلص منها، وإذا لم تأت فأنت تستعمل فأسك في حرث الأرض تحت أقدامها، هل هذه هي القاعدة الذهبية الآن لعلاقاتنا ببعضنا ببعض؟.

سيطرت عقدة الخوف وشوهت حالة التسامح التي كانت يومًا ما راسخة داخلنا، هل ما حدث من انتهاكات من قبل الآخر – أيًا كان موقعه وأيًا كانت سلطته – حين أغلق هذا الخوف كل أبواب القبول وكل نوافذ التسامح ولم يعد ممكنًا – مع طول الزمن – سوى القبول بفكرة أن آخرة القبول للآخر هي تفجر الدماء والسجن والسحل والاغتصاب والإبعاد والتآمر... وكل أشكال الجريمة التي يمكن أن ترتكب سوف يتم ارتكابها فيك إن آجلاً أو عاجلاً، فابتعد ما استطعت عن الجميع.

ولا يعني ذلك أن كل شخص يقف بمفرده، فالذباب لا يتجمع سوى مع الذباب، والحمير لا تجتمع سوى مع الحمير، والطواويس لا تجتمع سوى مع الطواويس، والضباع لا تقترب إلا من الضباع، وفتات الموائد بعد ذلك للخدم، وبالتالي انتهت واضمحلت فكرة قبول الآخر المثلى والتي قام عليها المجتمع لمئات السنوات.

وعلى سبيل المثال نحن نفتح أذرعنا لكل غريب يأتي من الخارج، لكننا أقفلنا صدورنا وعيوننا عن كل ما هو مصري، ولأننا كذلك فقد أصبحنا نأكل بعضنا البعض حين نعيش في الخارج مثلاً، سمحنا للجميع بأن يشمت بنا وينكرنا ويدعي عدم وجودنا، بل وصل الأمر بالبعض في الدول العربية إلى كراهية كل ما هو مصري، لماذا؟ لأننا فقدنا الثقة في أنفسنا، ولأننا ليس لنا علاقة جيدة ببعضنا البعض، ولأننا أصبحنا نموذجًا سيئًا، يقول ما لا يفعل، كيف كنا نبني أحلام الوطن من المحيط إلى الخليج، ودون أن ندري حطمنا الجميع، ولم يتبقى سوى الشراذم التي تتجرع النفط وتبيع النساء وتتحالف مع الشيطان، هذا الآن هو حالنا غير المأسوف عليه.

أصبح المصريون يعيشون في حلقة مفرغة من العنف والعنف المضاد، ليس من المهم أن يكون هذا العنف صياحًا ودمًا وشتائم، بل قد يكون عنفًا سلبيًا يظهر في التعامل مع كل آلة أو جماد أو حائط.
انظر لأطفال المدارس وهم يهشمون المقاعد والطاولات والمصابيح والصنابير، وهم يضعون مسامیرهم في السيارات الواقفة، انظر للإهمال المستشري كأنه وباء كالطاعون، انظر للشوارع وأكوام القذارة، إلى النهر الميت الذي قتلناه بسبب تسيبنا وقوانينا المطاطة، وروح التربح والجشع.

جزء من كل ذلك بدأ من لحظة انهيار قبول الآخر داخلنا، وساعد على ذلك المواقف السلطوية الشاذة، التي ارتضت في النهاية الهوان لأبناء الشعب المتهمين الآن بأنهم لا يفهمون ولا يهضمون الديمقراطية سأصوت معهم، ولكن يبقي السؤال: من فعل ذلك ولماذا؟

لأنهم لا يريدوننا أن نفهم، يريدون عقولنا دائمًا في غيابات السجون، ولم تكن الحرية أبدًا منحة من الحاكم، لكن ها هي لدينا هنا في قلب العروبة الذي مات وشبع موتًا، لأن الإبداع تم قتله وتشريده، وإيداعه المعتقلات، وأوقفوا أمام بوابات الإبداع جيوشًا من الأمن المركزي والضباط، الذين لم يتعلموا الحفاظ على الناس، وإنما الحفاظ على بؤرة النظام، السلطان، وبالتالي لم يعد الآخر مقبولاً، فنحن (حرامية) في المظاهرة، ونريد قلب نظام الحكم في التجمع، وشوية عيال في السجن، هذا هو الحال، كيف يمكن أن يكون النظام مسؤولاً عن حرية الناس وتعليمهم وتثقيفهم وهو يضع عقولهم في السجون.

منذ خمسين عامًا ويزيد، منذ بداية تأييدنا للثورة العظيمة ونحن نزج كل يوم كقطيع الأرانب والخراف في السجون، هل يمكن لوطن يأكل أبناءه أن يكون وطنًا؟ تحول الوطن إلى مقبرة للعقول وبالتالي لم يعد مقبولاً أن يكون هناك قبولاً للآخر، لأن آخرة هذا القبول جحيم،

هذا هو ما نجحت فيه السياسة اللعينة لدولتنا، ونجح فيه رؤساء الجمهوريات، ونجحت فيه كل أشكال السلطة في تلك السلسلة الرهيبة القائمة على الثأر والاستلاب.

عدم قبول الآخر، رد فعل طبيعي لسياسة المعتقلات والسجون والإهمال والتجاهل والكذب والبهتان وسوء الإدارة وتدني الاقتصاد وتخلف التعليم وانهيار الصحة وانقطاع الكهرباء والمياه وطفح المجاري، ماذا يتبقى بعد ذلك لأن نقبل به؟

سأعطيك مثالاً، اجلس مع بعض المدرسين أو المحامين أو المهندسين أو الأطباء أو أساتذة الجامعة أو على المقهى، بمجرد انفضاض الجلسة ستجد من يتآمر عليك أو يتهمك بالتآمر، أو ينعتك بالغباء وعدم الفهم، أو (شايف نفسك، وقد تكون فعلاً شايف نفسك)، أو بأنك كذاب، أو بأنك ليس لديك قبول للآخر؛ وقد يكون هذا صحيح في حالتين: إذا اختلفتَ معهم في الحوار، أو بين الأنداد في التخصص الواحد أو المهنة الواحدة.
وهناك العديد من الأمثلة الفردية التي عاصرتُها والتي كان من نتيجتها عشرات المعارك على المستوى المهني.

عدم قبول الآخر حالة عدمية، ومؤشر في غاية الخطورة على مستقبل المجتمع؛ وليس الأفراد فقط؛ نحن نقتل أنفسنا ونقتل روح الديمقراطية التي نبكي عليها جميعًا الآن، سأسمح لكم جميعًا بالاختلاف معي، لكن هل معنى ذلك إلغاء وجودكم وتسفيه فكركم وبأنكم غائبون لا تسعون سوى وراء مصالحكم؟

قبول الاختلاف هو أول شروط الديمقراطية، والقضاء على هذه السمة يعني أننا وضعنا رأس الديمقراطية تحت المقصلة، أما جسدها فهو يترنح مذبوحًا في الطرقات.

لقد نجحت مؤسسة الدولة في تركيع الجميع، وبث الخوف في الجميع والنكاية من الجميع، بحثًا عن وجودها هي فقط، وإذا اعتبرنا أن جسد الدولة هو الشعب، ورأس الدولة هو النظام الحاكم – من منظور إداري – فإن أي رصاصة تُطلق على الدولة سوف نجد رأس الدولة/ السلطة يحمي نفسه معرضًا جسد الدولة/ الشعب للأذى، مع تزايد الضربات ينحني الجسد ويختفي الرأس بين الذراعين/ الشرطة والجيش، ويصبح الجسد مكشوفًا أمام كل الضربات والطعنات التي توجه إليه، حتى يُنهك تمامًا ويسقط، وحين ينتهي المعتدي، يكون الجسد شبه ميت، أما الرأس فما تزال كما هي.

هل هذا هو ما يحدث بالضبط؟ خوف النظام يدفعه إلى التضحية بالشعب (عمال على بطال)، من أجل المحافظة على وجوده؟ ربما.
من أين أتى النظام بهذه الفكرة الملكية؟ لا أدري حقيقة، ربما هي رد فعل بيولوجي أو سيكولوجي، حب البقاء، والذي يبقى هو من يستطيع أن يحافظ على غطائه، وسيتفتت من هو مكشوف، وبالتالي فأنا لا أرى سوى أن جميع الناس مكشوفون أمام تلك الطعنات الغائرة التي تأتي من الخارج/ المعتدي.

لكن القضية قد لا تكون كذلك بالمرة، فالرأس الإداري/ النظام في صراع دائم مع الرأس المفكر/ العلماء والفنانين والمثقفين وشرفاء السياسة، وبالتالي فإن أول صراع يحدث يقوم الرأس الإداري بوضع الرأس المفكر في المعتقل، ويتفنن بعد ذلك في التضييق على كل مؤسسات المجتمع، فيبدأ بكل أشكال السلطة ويحولهم من منتخبين بشكل حر إلى منتخبين بالتزوير أو بالتعيين.
هذا هو ما يفعله أي نظام فاشل في العالم، وبالتالي تبدأ سلسلة عدم القبول، أقبل بمن؟ من أتى بهذا الكيان ليكون مسؤولاً عنى، ويبدأ الكيان الغاصب – الذي أتي عن طريق التعيين أو التزوير – في الاعتماد على معاونين من الفشلة وكتبة التقارير والملوثين والمزيفين.

وتبدأ سلسلة أخرى من عدم القبول، ربما وصفها جيدًا كاتب رواية (١٩٨٤) وصاحب (مزرعة الحيوانات)، حين تحدث عن مستقبل الإنسانية حين يحتل الأرض نظام فاشي، يجعل الأب رقيبًا على ابنه وزوجته والعكس صحيح، أجيال طويلة من كتبة التقارير وماسحي بلاط السلطان.

المشكلة الأكبر، والمعضلة الأدهى حين نتحول جميعًا إلى فاشيين بشكل أو بآخر، وأول حلقات الفاشية عدم قبول الآخر، وقتل روح التسامح، لأن الآخر أصبح مجهولاً، لا تدري من أين أتى، من النظام أو من أي بؤرة فساد، حالة من التقيح الاجتماعي التي امتدت في جميع أجزاء جسد الوطن.

لم أعد أؤمن بالعلاج لمن هو موجود، فقد تلوث، العلاج يبدأ بمن هو آت ولم ير الحياة بعد، هذا هو الحل الوحيد، جيل جديد تمامًا لم يتشوه ولم يتلوث بعد... هل نستطيع إنقاذ الأجيال القادمة والجديدة دون أن نعرضها لمتلازمة السلطة والقاتل التسلسلي الاجتماعي؟

أعتقد أننا نستطيع، وأول ذلك هو قبول الآخر، الحوار الاجتماعي المبني على أننا جميعًا مصريون، ونرغب في صلاح هذا البلد واستعادته من جديد، وعدا ذلك فنحن هراء.